سلسلة محاضرات فكرية | ٣ |

معرفة الدين

محمد باقر السيستاني

شبكة الفكر
alfeker.net

معرفة الدين

محمّد باقر السيستانيّ

محاضرة ألقيت على جمع من طلبة الجامعات
بتاريخ ٢ جمادى الثانية ١٤٤٠هـ
في النجف الأشرف

هذه السلسلة

مجموعةُ محاضرات أُلقيت في جمع من أساتذة وطلاب الجامعات، وكانت في الحديث عن حقيقة الدين وحقّانيّته والحاجة إليه في ظلّ الإثارات المعاصرة، وقد تضمّنت توضيح أنبائه الكبرى وقيمه النبيلة، وبيان أنّ الدين ينطلق في رسم أبعاد الحياة والإنسان من منطلق عقلائيّ راشد، وكذلك ينطلق في تشريعاته وقوانينه من منطلق فطريّ سليم ومن مقتضيات الضمير الإنسانيّ، وتضمّنت أموراً أخرى تفصيليّة.

وكان ذلك كلّه بهدف الحثّ والإعانة على التبصّر الذي يقتضيه العقل ويوصي به الدين.

وقد يلحظ الناظر مضامين مشتركة بين أكثر من محاضرة، لأنها جاءت في أوقات مختلفة غير متقاربة ولمجاميع عدّة، وكان تحديد مضمونها على وفق اقتضاء محور البحث فيها، وذلك أدّى إلى هذا الاشتراك.

ولم أشأ تغيير وضعها وجعلها في صورة كتاب واحد يتألّف من فصول، لأنّ لوضعها هذا إيجابيّاته التي سوف يلمسها الباحث عند قراءتها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، لاسيّما (محمّد) خاتم النبيّين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

يسرّني اللقاء بالإخوة الأعزّة للحديث حول معرفة الدين، وهو اهتمام مشترك بيننا جميعاً في مسيرتنا في هذه الحياة.

لماذا نريد معرفة الدين؟

إن التبصر في شأن الدين وتبيّن الموقف اللائق إزاءه أمر ضروري لكل واحد منا، لأن الدين يخبر الإنسان عن مصيره وعاقبته ومضاعفات أعماله وسلوكياته، وهو ما لا

بد من أن نتحقق منه لأنفسنا طبعاً، كما أنه يحدد نوع التعليم والتربية الذي ينبغي أن نمارسه في الأسرة ونتعامل وفقه مع المجتمع العام.

ويتحقق التبصر حول أي طرح لتبيّنه والبتّ فيه من خلال مرحلتين:

المرحلة الأولى: التعرّف على أصل الطرح للتأكد من كونه طرحاً معقولاً في نفسه لا يخالف بديهيات العقل والضمير الإنساني.

والمرحلة الثانية: التأكد من وجود حجة كافية على الطرح المفترض من خلال مؤشرات موضوعية تدل على حقانيته وصدقه.

ولذا فإن التبصر في شأن الدين لتبيّن صواب رؤيته يكون من خلال:

١. التعرّف على الطرح الديني للتأكد من كون مضمونه ـ وهو الرسالة الإلهية ـ مما اشتمل عليه من أنباء واتجاهات أمراً معقولاً وفق ما جهزت به النفس الإنسانية من عقل السليم وضمير أخلاقي.

٢. التأكد من قيام الدليل على صحة إسناد هذا المضمون إلى الله سبحانه وتعالى، في رسالة صادرة منه فعلاً إلى الإنسان أوصلها إليه من خلال بعض أفراده الذين

اصطفاهم لهذه الغاية.

والواقع أن التأمل الجامع والدقيق في شأن الدين يؤدي إلى قناعة وثقة بالدين ـ كما لاحظت ذلك في تجربتي الشخصية في أمر الدين[١] ـ وذلك أن الدين ليس إلا مجموعة مبادئ بعضها واضحة وبيّنة في حد نفسها وبعضها الآخر يبدو ملائماً ومناسباً من خلال الإدراك الإنساني الراشد، بحيث إذا قامت عليه الحجة اقتضى الإذعان به. كما أن الحجة على حقانية الدين وصدقه قائمة على وجهٍ مقنعٍ من خلال أدوات عقلانية وراشدة متى اهتم الإنسان بالتثبت فيها تثبتاً لائقاً ومناسباً.

ولكننا سنقتصر في هذه المحاضرة على تناول الأمر الأول وهو (معرفة الدين)، وذلك للوقوف على معقولية الطرح الديني حول الوجود والإله والإنسان[٢]، ونرجو أن نوفق للحديث حول الأمر الثاني (وهو صدق الدين وحقانيته) في محاضرة أخرى.

---

(١) لاحظ: محاضرة (تجربتي مع الدين) (ح١ من هذه السلسلة)، وكتاب (الأنباء الثلاثة الكبرى، رسالة الله إلى الإنسان) ص: ٥٢٣ وما بعدها.

(٢) ينظر في تفصيل ذلك كتاب (حقيقة الدين).

تعريف القرآن الكريم للدين:

فقد تضمن القرآن الكريم التعريف بالدين بصورة إجمالية في آيات عديدة تدل على تكوّن الدين من بعدين:

١. بعد معرفي ينبغي اطلاع الإنسان عليه وهو وجود الإله وتوحيده وخصائصه، ثم رسالة الإله إلى الإنسان وبقاء الإنسان مرهوناً بأعماله ليجازى بها في نشأة أخرى.

٢. وبعد تشريعي يمثل السلوك الصائب الذي ينبغي أن يسير عليه، وهو مودع في باطن الإنسان ويمثل ضميره الأخلاقي ويهدي إلى الأعمال الصالحة والقيم الفاضلة من العدل والإحسان والصدق وأخواتها، ولنتلُ بعضها:

١. قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

٢. قال تعالى: ﴿**وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي**

---

(١) سورة المائدة: ٦٩.

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْـمُتَّقُونَ﴾(١).

٣. قال عز من قائل: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**(٢).

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران: ١١٤.

مقدمة:

وقبل تعريف الدين وشرح رؤاه التي يطرحها لابد أن نقدّم للمنهج الذي سنعتمده للتعرف على الدين وبيان حقيقته، وذلك أننا سنعتمد أمرين:

أحدهما: فهم الدين على وجه صائب ودقيق.

والآخر: التعريف بالدين من خلال الإسلام.

١ ـ فهم الدين على وجه صائب:

وذلك أن من الضروري منطقياً قبل الحكم على شيء من فهمه بشكل صحيح، فالفهم الصحيح للفكرة يمثل نصف البحث الموضوعي عنها بل جلّه أحياناً، كما أن الفهم الخاطئ لها يمثل عائقاً أساسياً عن البحث الموضوعي حولها، وكم يتفق أن يحكم الإنسان بحكم خاطئ على فكرة أو قول من جهة عدم استيعابه وفهمه على وجهه، وهذا أمر يتفق في المناقشات الاعتيادية حتى في غير الأبحاث العلمية، ولعل لكل واحد منا تجارب عديدة في حكم الآخرين على فكرة أو قول لنا من غير استيعابه وفهمه على وجهه، أو تجارب عن حكمنا على قول الآخرين يبين لنا خطأه بعد فهمه على وجهه، وفي مثل ذلك جاء المثل

المعروف: (أساء سمعاً فأساء إجابة).

إذن: من الضروري أن نفهم الدين الذي نريد أن نتحقق من صدقه[1] عن قرب، وذلك من عدة جهات نذكر بعضها:

١. أن نفرز بين هذا الدين وبين سائر ما يمكن أن يطلق عليه اسم الدين من العقائد والأفكار التي قد نستوضح عدم صحة كثير منها، فلا ينبغي أن يكون اشتراك الاسم باعثاً على التشويش علينا في البحث، فالعلم أيضاً يطلق على العلم المعتمد على المنهج المنطقي والأدوات الموضوعية وعلى ما يعرف بـ(العلم الزائف) الذي يشبه العلم في الصورة ولكنه في حقيقته ادعاءات محضة أو خاطئة وخرافية.

٢. أن نفرز بين أصول الدين وثوابته واتجاهاته الأساسية وبين العناصر المتغيرة، أو التي يمكن أن ينالها التغيير مبدئياً باختلاف الزمان والمكان، سواء قام الدليل على هذا التغيير فعلاً أو لا.

٣. أن نفرز بين محتوى الدين وعناصره بدقة وبين الظواهر المختلطة مع الدين من الأعراف والتقاليد الجارية،

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك كتاب (حقيقة الدين).

فليس كل عرف وتقليد شائع بين أهل دين هو جزء من ذلك الدين بالضرورة وفق الاستيثاق بالأسلوب العلمي، بل كثير منها تعد أعرافاً محلية نشأت تدريجاً بين الأقوام، وبعضها حدث لحماية تعاليم الدين في المنظور الاجتماعي لأهل تلك الأعراف ولكنه ليس جزءاً منه، وبعضها يعدّ تطبيقاً لتعاليم الدين وفق تقدير أهل العرف المفترض، وكل ذلك لا يصح أن يعدّ جزءاً من الدين بالمعنى الدقيق.

٤. أن نفرز بين ما هو جزء من الدين يقيناً وبين الاجتهادات المختلفة في استنباط الدين في المواضيع النظرية، فالأمور الاجتهادية قد تقوم عليها الحجة عند بعض فقهاء الشريعة أو كلهم ولكنها ليست إلا اجتهادات في تحديد وجهة نظر الدين ولا يصح أن تُعتبر الدين بعينه، حتى يقيّم بها الدين ويُقاس بها حقانيته من عدمها.

بل إذا ثبت خطأ شيء من تلك الاجتهادات من المنظور العقلاني بعد التثبت الكافي كان ذلك بنفسه نافياً لصحة ذاك الاجتهاد من المنظور الشرعي بعد تأصيل مبدأ العقلانية بشكل واضح في الدين، على ما سيأتي توضيحه لاحقاً.

٢ ـ التعريف بالدين من خلال الإسلام:

إن أول ما يخطر في ذهن الباحث عند الحديث عن حقانية الدين وصوابه هو أن الأديان كثيرة، فهل يبحث الإنسان عن جميعها، فذلك أمر متعسّر، أم عن بعضها خاصة، فأيّ واحد منها يختار المرء؟ ولماذا الترجيح لبعض دون بعض؟

الواقع أن الدين يطلق بمعنى عام على مجموعة الاعتقادات والتعاليم المتعلقة بالإله.

وتنقسم الأديان إلى قسمين: أديان بشرية، وأديان إلهية.

فالأديان الإلهية: هي أديان تبتني على وجود رسالة من الإله على يد نخبة من أفراد الإنسان (الرسل) تتضمن تعاليم اعتقادية وسلوكية للإنسان.

وتتقوم هذه الأديان عادةً بأنباء ثلاثة مهمة:

١ . وجود الإله.

٢ . عناية الإله بالإنسان ـ المتمثلة في تلك الرسالة ذاتها ـ.

٣. وجود بعد روحي للإنسان يبقى بعد الممات ليلقى جزاء أعماله.

وتعتمد هذه الأديان بشكل عام على الرسالة ودلائلها في إثبات صدق الدين، وترى أن هذه الرسالة المعلنة

المقرونة بالحجة الواضحة هي السبيل الموثوق للاتصال بين الإنسان والإله والذي اختاره الإله فعلاً.

وأما الأديان البشرية: فهي أديان لا تدعي وجود رسالة معلنة من الإله أو الآلهة، وإنما تبني على إثبات الإله والارتباط به من خلال أفكار وتجارب روحية بشرية ومتوارثة ومتراكمة.

وتسند هذه الأديان عادةً إلى رجال حكماء ذووا تجارب روحية استتبعت في تصورهم تجليات إلهية، وتبعهم فريق من الناس، فصارت تعاليمهم ديناً متبعاً، وهذه الأديان في الغالب تتبنى المبادئ الثلاثة المتقدمة بنحوٍ ما، فهي مضافاً إلى الاعتراف بالإله تثبت عناية الإله بالإنسان ووجود بعد روحي للإنسان يبقى بعد الممات.

والواقع أنه يصعب على الإنسان بشكل عام أن يثق بدين مبني على تجارب بشرية محضة لاستكشاف منهج تعليمي وسلوكي في التعامل مع الإله، من جهة سعة قابليات النفس الإنسانية في التخيلات والأوهام كما يلحظه المرء من خلال الاطلاع على مختلف الاعتقادات المبنية على التجارب البشرية وما يجده من الشطحات الواضحة فيها.

إذن ما ابتنت عليه الأديان الإلهية من أهمية وجود رسالة إلهية تخاطب عامة الناس وتقيم عليهم الحجة الواضحة

بالأدوات الموضوعية المقنعة مبدأ معقول ومناسب.

وبذلك تخرج الأديان البشرية كلها عن دائرة الاهتمام.

وأما الأديان الإلهية التي تتضمن نقل رسالة من الله سبحانه إلى الخلق فالمهم منها هو الأديان الإبراهيمية الثلاثة وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي أديان توحيدية، بمعنى أنها توحّد الإله في الأصل وتخلو عن التعدد الخرافي للإله الذي يفترض في أديان أخرى.

ويلاحَظ أن هذه الأديان تشترك في التعاليم العقائدية من قبيل وجود الله سبحانه والدار الآخرة، وتشترك في تاريخها للدين والأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه إلى العباد، كما تشترك في أصول التعاليم السلوكية سواء فيما تعلق بعبادة الإله مثل الصلاة والصيام والاعتكاف والحج ـ على فرق فيما يحج إليه ـ أو فيما يتعلق بحقوق الناس من حيث تبني المبادئ الفاضلة بشكل عام من العدل والإحسان والصدق والعفاف والصلاح العام وغير ذلك، مع جملة من التشريعات التفصيلية التي تُعَدّ تطبيقات لهذه المبادئ[1].

---

(١) نعم طرأ التحريف في بعض مذاهب هذه الأديان في أثر عدم محفوظية كتبها تاريخياً على وجهها كالغلو في بعض الأنبياء والأوصياء، نظير الغلو في المذهب الشائع في دين المسيح بالاعتقاد

وهذا الاشتراك القريب بين هذه الأديان في تعاليمها أمر واضح بالبحث المقارن بين هذه الأديان، سواء فيما بينها في حد أنفسها ثم فيما بينها وبين غيرها من الأديان.

ومن الملفت في شأن هذه الأديان أن اللاحق منها يعترف بالسابق منها وبتعاليمها وكتابها صريحاً، فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام وفق الإنجيل يعترف بموسى وجميع أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام من بعده، ويعترف بالتوراة وما اشتملت عليه من كتب هؤلاء الأنبياء، ويقر بجميع تعاليم التوراة، لكنه جاء بنسخ شيء منها في بعض ما كان قد حُرِّم على بني إسرائيل من قبل.

كما أن الإسلام يقر باليهودية والمسيحية جميعاً وبكل من التوراة والإنجيل ـ عدا ما وقع فيهما من التحريف ـ وتؤكد على وحدة التعاليم العقائدية معهما تماماً، وكذلك أصول

بألوهية المسيح وإشراكه في الصلاة ـ التي هي فريضة مشتركة بين الأديان ـ بالحمد والمجد للمسيح مع الله سبحانه فيها، وهي ظاهرة خطيرة وغير مسبوقة بشكل عام في تاريخ التشريع الديني المتمثل في التوراة التي هي محل إقرار المسيحية.

نعم عن بعض اليهود أنهم قالوا إن عزيراً ابن الله، لكنه لا يتمثل في التوراة، وربما كانت فرقة شاذة.

التعاليم التشريعية السلوكية.

ومن ثم يصح القول إنه في حال صدق هذه الأديان جميعاً فإننا لسنا أمام أديان متعددة في الحقيقة، بل أمام رسالات متعددة، لأن بعث رسالة جديدة من الإله لا يعني حدوث دين جديد ما دام أن هذه الرسالة تُصدِّق بالرسل المتقدمين والرسالات السابقة وأصول تعاليمها، ولذلك نجد أن المسيحية لا تعتبر نفسها ديناً مغايراً مع دين موسى عليه السلام وسائر أنبياء بني إسرائيل، بل هي استمرار لليهودية، كما أن الإسلام يؤكد على وحدة الدين في الرسالات كلها، لأن كلها بحكم كونها من قِبل الإله مبنيّة على التسليم للرسالة التي تَرِد عن الإله، والرسالات الواردة عن الإله لا تختلف في أصول تعاليمها بطبيعة الحال كما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[(٢)]، وقال عز من قائل: ﴿**قُولُوا آمَنَّا**

(١) سورة آل عمران:١٩.

(٢) سورة البقرة:٢٨٥.

بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

وعليه فإن ثبوت الإسلام يعني أن هناك ديناً إلهياً واحداً، يمثل الإسلام الرسالة الأخيرة فيه، كما يمثل رسوله ﷺ الرسول الأخير في سلسلة الأنبياء والرسل من قِبل الإله، المذكورين في التاريخ الديني في التوراة والإنجيل.

وبناءً على ذلك: فإن دين الإسلام يمكن أن يمثّل (الدين الإلهي الجامع).

وهو بذلك أولى هذه الأديان أو الرسالات بتمثيل هذا الدين، كما أنه لا غنى عن البحث عنه لمن يريد أن يتحرى الحقيقة في شأن الدين الإلهي[٢].

---

(١) سورة البقرة:١٣٦.

(٢) وذلك لعدة اعتبارات:

١ ـ أن هذا الدين آخر الأديان أو الرسالات الثلاثة، فالتحقيق عن أي دين آخر قبله لا يغني عن التحقق منه، لأننا إذا تحققنا من دين سابق عليه ولم نجزم بحقانيته لم يقتضِ ذلك عدم حقانية دين

الإسلام، وأما إذا جزمنا بحقانية الدين السابق فإننا لا نستغني به عن التحقق من حقانية دين الإسلام، لأن حقانية دين الإسلام تبقى محتملةً، ومع حقانيته لا بد من الإذعان به..

وذلك **أولاً**: لأنها رسالة إلهية شاملة للإنسانية، وليست خاصة بقوم معينين، فهي إذن تعني كل إنسان راشد على وجه الأرض، ولا يصح للإنسان إهمال رسالة موجّهة من الإله إلى الإنسان.

وثانياً: أنه لا غنى للإنسان من الاستضاءة بهذه الرسالة في شأن تعاليم الدين الثابتة ـ التي لا يجوز اختلاف الأديان فيها ـ لأنه سوف يصحح للإنسان ما يمكن أن يكون قد وقع فيه من التحريف وسوء الفهم في الأديان السابقة مثل الاعتقاد بامتياز بني إسرائيل في دين اليهود، وألوهية المسيح` في المسيحية.

وثالثاً: أنه لا بد من الأخذ بالتعاليم المستجدة في الإسلام فيما يجوز أن تختلف فيه تعاليم الرسل، مثل التشريعات التي هي عرضة للتغيير والتطوير والتكميل.

٢ ـ أن دين الإسلام هو أوثق الأديان الإبراهيمية من المنطلق التاريخي، وذلك لوجهين:

الأول: أن كتابه وهو القرآن الكريم محفوظ بوضوح بحسب الشواهد التاريخية، بمعنى أنه لا شك عند الناظرين ـ المسلمين وغيرهم ـ في تاريخ الإسلام في أن القرآن الكريم الموجود والمحفوظ منذ جمع عثمان للمصاحف في سنة (٢٥) من الهجرة

النبوية ـ أي بعد (١٥) سنة من وفاة النبي (ص) فقط ـ هو بعينه ما كان معهوداً ومتداولاً ومقرواً في زمان النبي ﷺ من دون تغيير.

وهذه الميزة لا تثبت لأي كتاب آخر كالتوراة والإنجيل، فإنه لا دليل تاريخي متصل على كونهما بعينهما ما كان معهوداً في عصر موسى وعيسى عليهما السلام، وذلك واضح بالاطلاع على الظروف التاريخية التي مرّتا به.

إن محفوظية القرآن الكريم أدت إلى ثبوت أحداث الرسالة المهمة والتي ذكرت أو أشير إليها في القرآن الكريم بشكل موثوق، لأن النص القرآني كان متزامناً مع الأحداث فهو يشير إليها ويذكرها، ويعلق عليها، وهذا يمثل تسجيلاً موثوقاً لتلك الأحداث ومجرياتها.

الثاني: معهودية الكتابة في أوساط المسلمين في عهد النبي ﷺ وانتشارها بتشجيعه ﷺ سريعاً، واهتمام المسلمين من الصحابة والتابعين ـ مع من فيهم من الذين لم يكونوا يؤمنون بهذا الدين وهم المعروفون باسم (المنافقين) ـ بالنقل المسند لسيرة الرسول ﷺ أدى ذلك كله إلى وضوح كبير لأحداث هذه السيرة ومجرياتها، مما يساعد على تكوين صورة جليّة وموثوقة عن حقيقة ما وقع.

٣ ـ إن الاطلاع على الإسلام وكتابه وتاريخه وتاريخ رسوله ﷺ وسيرته بالمقارنة مع الأديان السابقة يعطي لأي متابع منصف ثقةً بأن هذا الدين لا يقل في مؤشرات حقانيته عن الأديان السابقة عليه، وليس هناك أي سبب موضوعي يدعو إلى استبعاد حقانية

هذا الدين في حال القبول بحقانية دين موسى عليه السلام والأنبياء من بعده ـ كما هو موضع إقرار الدينين اليهودي والمسيحي ـ.

فالإسلام يتضمن ـ من خلال القرآن الكريم ـ مجموعة متكاملة وملائمة من التعاليم الدينية المتعلقة بالإله والدين وتاريخ الأنبياء واتجاهات التشريع وتفاصيل تشريعية مهمة.

بل إن القرآن الكريم ـ الوارث للأديان السابقة ـ قد ذكر تعاليم الدين الإلهي الجامع على نحو أوثق وأوفق بالعقل والفطرة في العديد من النقاط مما كان في الحقيقة تصحيح أخطاء سادت في تلك الأديان في أثر العصبيات وسوء الفهم مثل الاعتقاد بامتياز بني إسرائيل بالقياس إلى سائر الناس في دين اليهود، والاعتقاد بألوهية المسيح عليه السلام في المسيحية ونحو ذلك.

٤ ـ يضاف إلى ما تقدم أن التحقق من الإسلام أمر أسهل لمن عاش في بيئة إسلامية ويملك خلفية ثقافية إسلامية فإنه يعيش تاريخ الإسلام ويجد آثار هذا التاريخ مقروناً بتاريخ آبائه وحضارتهم وثقافتهم في مختلف نواحي الحياة.

لذلك كله يكون التحقق من الدين من خلال الإسلام ـ بغضّ النظر عن واقع مؤشرات حقانيته على ما سيأتي بيانه ـ هو الخيار الأول والأسلم والأقرب لمن يريد البحث عن الحقيقة في شأن الدين.

توضيح الدين والتعريف به:

وبعد توضيح الأساسين المعتمدين في شرح الدين والتعريف به نعود للتعريف بالدين على ضوء ذلك:

ابتناء الدين على رؤى ثلاث:

إن العرض الجاري لمضمون الدين ـ كما ذكرنا من قبل ـ هو أنّ الدين يتألف من بعدين:

أ. بعد معرفي، وهو يتضمن أصولاً ثلاثة:

١. وجود الإله وخصائصه.

٢. رسالة الرسل المبعوثين من الله تعالى إلى الخلق.

٣. المعاد، ومعناه عود الإنسان إلى الحياة في نشأة أخرى.

ب. بعد تشريعي، يتضمن السلوك الصحيح للإنسان.

وهذا العرض صحيح.

ويمكن توضيح ذلك وتفصيله بالقول إن الدين يشتمل على رؤية عميقة حول المواضيع المركزية، وهي ثلاثة: الإنسان وأبعاده، والإله وخصائصه، والعلاقة بين الإنسان والإله.

أ ـ رؤية الدين حول الإنسان:

فالرؤية الأولى: تتعلق بالإنسان، فالإنسان هو محل

الدين والمخاطب به، إذ ليس الدين إلا تعليمات معرفية وسلوكية ينبغي أن يقف عليها الإنسان ويعمل على وفقها، وعليه فهو بطبيعة الحال يشتمل على رؤية تجاه الإنسان، كما أن كل منظومة فكرية متكاملة في الحياة لا بد أن تشتمل على رؤية حول الإنسان.

فما هي رؤية الدين حول الإنسان وخصاله، وهل هذه الرؤية ناضجة وراشدة وواردة أم تجافي الواقع المشهود والمعلوم في شأنه؟

إن الإنسان وفق رؤية الدين يتصف بخمس خصال، وهي رؤية صائبة وقريبة فعلاً..

١. التفكير.
٢. النزوع إلى الحكمة.
٣. الضمير الأخلاقي
٤. الإرادة الحرة وقدرة الإنسان على التحكم في سلوكه.
٥. البعد الروحي (غير المادي).

١ ـ التفكير:

وهو القدرة على تأمل الأمور، والاهتداء من خلال الأشياء بالالتفات إلى العلائق بينها واستثمار هذه العلاقة في اكتشاف بعضها من بعض، وهذه خصلة بديهية للإنسان.

ويرتكز الدين وفق الخطاب القرآني في المقام الأول على إثبات هذه الخصلة للإنسان، فهو يعتمد على قدرة الإنسان على التفكير، بل ويسعى إلى إثارة فكره وتحفيزه في اتجاه اكتشاف الحقيقة، ومعرفة الحق عن الباطل، والصحيح عن الخاطئ. ومن ثم نجد أن الآيات القرآنية تحث الإنسان دائماً على التفكير والتعقل والإصغاء والإمعان والاكتناه والاستنطاق للأشياء، كقوله تعالى: (ألم يروا)، (ألم ينظروا)، (أولم يتفكروا)، (لقوم يعقلون. لقوم يتفكرون. لقوم يفقهون. لقوم يتدبرون)، وهذا المعنى يتكرر بصور مختلفة في آيات القرآن الكريم.

فهذا التحفيز والإثارة هو جزء من التعليم الذي بُعث لأجله الأنبياء ـ وفق ما ذكره القرآن الكريم في غاية إرسال الله سبحانه الرسل إلى الناس ـ فلم يكن تعليم الرسالات الإلهية للخلق على سبيل إلقاء مواد جاهزة يتعلمها ويحفظها الإنسان، بل كان مبنياً على إثارة عقل الإنسان وإدراكه فيما يستطيع بنفسه من إدراكه بنحو مباشر إذا حُفز للتأمل والتدبر فيه، كما قال الإمام علي عليه السلام في أول خطبة من نهج البلاغة: ((... **وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**...)).

وبذلك يظهر أن الأساس الأول لاتجاه الدين في إقناع الإنسان بالدين إنما هو إقناعه على أساس مبادئ موضوعية

ينالها الإنسان بعقله وتفكيره وتأمله على وجه جامع.

٢ ـ النزوع إلى الحكمة[١]:

وهو الجانب الذي يوازن الخيارات المختلفة ويوصي باختيار أنسبها وأحسنها من حيث آثاره في العاجل والآجل، فإذا خيّر بين خيارين سعيدين اختار أسعدهما، وإن خيّر بين خيارين مُرّين اختار أقلهما مرارةً وعناءً.

وهذه الخصلة أيضاً بديهية للإنسان.

ويرتكز الدين على اتصاف الإنسان بهذه الخصلة أيضاً. فالدين يعتمد على اتصاف الإنسان بروح الحكمة وتقديره الفطري لها، بل يسعى إلى إثارة هذه الروح في الإنسان، لأن الحياة مبنية على سنن وقواعد، وهناك سبل مختلفة فيها، فعلى الإنسان أن يختار السبيل الراشد والحكيم، ومن ثم

---

(١) والفرق بين الحكمة وبين العقل المفكر أن شأن الجانب الفكري شأن نظري، فهو يستكشف الحقائق نظرياً فحسب، كما يدرك مثلاً أن (١+١=٢). وأما الجانب الحِكَمي فهو ذو شأن عملي ـ على حد الضمير الأخلاقي ـ بمعنى أنه يهدي إلى العمل المناسب، كما يقال مثلاً: إنه إذا كان هناك طريقان إلى غاية: أسهل، وأصعب، فإن عليك اختيار الطريق الأسهل للوصول إلى تلك الغاية.

جاء في جملة غايات إرسال الله سبحانه للرسل أنه كان لتعليمهم الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْـحِكْمَةَ**﴾[(١)].

وبذلك يظهر أن الأساس الثاني للدين في إقناع الإنسان به هو انطلاقه من منطلق الحكمة، لأن حياة الإنسان مبنية على سنن حكيمة إذا سار فيها الإنسان سيراً مستقيماً بورك له فيها وانتهى به إلى السعادة، وإن انحرف عنها يميناً وشمالاً انتهى به إلى العناء والشقاء، ومن ثم قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**﴾[(٢)].

٣ ـ الضمير الأخلاقي:

ويعبر عنه أيضاً ب(الوجدان). وهو ما يشتمل على القيم الفاضلة التي ينبغي أن يعمل عليها الإنسان ويتخذها دستوراً في حياته، ويحكِّمها في سلوكه وتصرفاته، ويغلبِّها على غرائزه ورغباته، فالإنسان ليس كائناً غرائزياً على حد الحيوانات تسوقه غريزة الأكل والشرب والتزاوج والراحة

(١) سورة الجمعة:٢.

(٢) سورة الأنعام:١٥٣.

ونحوها، بل جُهِّز بمبادئ فاضلة أعلى ينبغي أن ينظِّم حياته على وفقها، وذلك من قبيل العدل وضده الظلم والاعتداء، والصدق وضده الكذب والقول بغير علم، والشكر للمنعم وضده الجحود والكفران، والعفاف وضده الاسترسال في الفحشاء والمنكر، إلى غير ذلك من المعاني الفاضلة.

وتنقسم هذه القيم إلى مستويين:

الأول: مستوى إلزامي، وقد يعبر عنه بالعدل، وذلك من قبيل تجنب الاعتداء على الغير، وهذا المستوى هو الذي يتمثل في القانون، فالقانون في المنظور المعاصر لا يتضمن إلا تشريعات إلزامية.

الثاني: مستوى غير إلزامي، وقد يعبر عنه بالفضل، ويعبر عنه في التعبير المعاصر بالأخلاق، مثل التبرع بالمال لصرفه على جهات البر والإحسان، ويطلق في الشرع على التشريعات بالمستوى الأول الإلزامي الوجوب والتحريم وعلى التشريعات في المستوى الثاني غير الإلزامي الاستحباب والكراهة.

واتصاف الإنسان بهذه الخصلة أيضاً أمر بديهي بحسب الوجدان العام، وهي على العموم موضع اتفاق الناس باختلاف أقوامهم مللهم. نعم ربما شذ عن ذلك بعض

الباحثين المحدثين وزعم أن الإنسان على حد الحيوانات، فهو أناني بطبعه وتحكمه الغرائز تماماً، وربما احتج بعض على هذا المدعى بنظرية التطور في نشأة الإنسان. إلا أن هذا الادعاء خطأ فاحش، لن يجري عليه حتى صاحبه في سلوكه العملي مع زوجته وأولاده وأصدقائه وأرباب عمله، فهو ينطلق في التعامل معهم من قيم وجدانية لا محالة.

ويرتكز الدين على إثبات هذه الخصلة للإنسان أيضاً، فقد أكّد القرآن الكريم على العدالة والقسط والإحسان وسائر المعاني الفاضلة تأكيداً كثيراً، وشرّع العديد من التشريعات في هذا الاتجاه ولا سيما في شأن الطبقات الضعيفة والمستضعفة أو التي تكون مظنةً للعدوان مثل اليتامى والنساء والأباعد (من الأقوام الأخرى) والأعداء في الحرب.

وزيادةً على ما تقدم فقد جاء في الدين تعميق أهمية هذه الخصلة من خلال أمور:

١. لقد أكد الدين على أن هذه الخصلة الدستور الأساس في حياة الإنسان والمنبع الأم للتشريع، فالتشريع السليم لا بد أن يأخذ بالقيم الفاضلة العادلة ويتحراها في مواطن التشابه والإبهام، ومن ثم جاء أن العنوان العام

للتشريع في الدين هو العدل وضده الظلم، والإحسان وضده الإساءة، والمعروف وضده المنكر، والعمل الصالح وضده العمل الفاسد والخاطئ، والحسنة وضدها السيئة، بل هذه القيم في منظور الدين تمثل أسباب الخير والشر والشقاء والعناء.

٢. ويسعى الدين على تربية النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني على وفقها لتكون هذه القيم هي المتحكمة في داخل الإنسان والمجتمع.

ولذلك جاء في القرآن الكريم مكرراً أن من غاية الرسالات الإلهية بجنب التعليم هو التزكية وإقامة القسط، كما قال تعالى: ﴿**يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾(٢).

٣. وتفريعاً على ذلك اعتبر الدين موافقة اتجاهه في التشريع للفطرة شرطاً ومؤشراً على حقانية الدين وصدقه، كما وصِف النبي ﷺ في إشارة إلى دلائل حقانيته وصدقه: ﴿**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ**

(١) سورة الجمعة:٢.

(٢) سورة الحديد:٢٥.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْـخَبَائِثَ﴾[١].

٤. وقد عمّم الدين القيم الفاضلة من مجال تعامل الإنسان مع الإنسان إلى تعامل الإنسان مع الإله، لأن الله سبحانه خالق للإنسان ومتنِّعم عليه بما يجده من النعم في نفسه وفيما حوله مما في السماء والأرض، فيليق بالإنسان أن يعترف لله سبحانه بفضله عليه ويشكره على إنعامه، كما قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾**[٢]، وقال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾**[٣]، وبذلك يكون تعامل الإله والإنسان أيضاً منضبطاً وفق الضوابط الأخلاقية.

٥. وفوق كل ما تقدم جاء في القرآن الكريم التزام الإله بالمعاني الفاضلة كالعدل والصدق والوفاء بالالتزام وغيرها كما سيأتي توصيف ذلك في الحديث عن الإله.

وعليه فإنّ القيم الأخلاقية ليست قيماً إنسانية بحتة، بل هي قيم حاكمة في أي تعامل عقلاني في هذا الوجود.

والذي نستخلصه من ذلك: أن السلوك الصحيح في

---

(١) سورة الأعراف:١٥٧.

(٢) سورة البقرة:١٥٢.

(٣) سورة البقرة:٢٤٣، وغافر:٦١.

شأن الإنسان الضامن لمصلحته وسعادته في هذه الحياة وما بعدها وفق منظور الدين هو ما وافق الضمير الإنساني وجرى وفق مقتضيات العدالة، فهذا يمثل القاعدة الدستورية الأساس في الدين، وعليها تتفرع جميع التشريعات الأخرى سواء الثابت منها أم المتغير، فلا بد من ابتنائها على مراعاة العدالة وتحريها.

٤ ـ الإرادة الحرة للإنسان:

والمراد بها أن الإنسان قادر على التحكم في أفعاله، ولا ينزلق إليها قهراً وفق عوامل جاهزة وقاهرة سواء المودعة في ذاته أو التي يكتسبها من خلال البيئة الاجتماعية والطبيعية، فهذه العوامل إنما هي دواعٍ نفسية يكون الإنسان حراً في الانسياق وراءها والاستجابة لها.

وهذه أيضاً خصلة بديهية للإنسان وفق الإدراك الإنساني العام. وعليها تتفرع مسؤولية الإنسان عن أعماله، واستحقاقه اللوم والعقاب في خطاياه، والمدح والثناء والمكافأة في حسناته، فلن يعفي العقلاء أحداً من مسؤولية أعماله على أساس دعوى أنه انساق إليها قهراً.

ويتفرع على هذه الخصلة قابلية الإنسان لتنمية نفسه وبنائها ليسلم عن الخلل ويصل إلى مراحل الكمال كما يبتني

على ذلك علم التنمية البشرية المعاصر.

وهناك بعض الباحثين ـ في علوم الطبيعة ـ أنكر الإرادة الحرة للإنسان، وادعى أن الإنسان ينساق إلى ما يعمله وفق غرائزه والمؤثرات عليه دون أن تكون له قدرة على الانفلات منها، وذلك خطأ فاحش وواضح للوجدان العام، ولن يجري عليه قائله نفسه في تعامله مع نفسه ومع الآخرين، فهو قد يعاقب نفسه على فعله ويؤنبها على خطيئته ويتحمل مسؤولية عمله، كما أنه يفعل مثل ذلك تجاه ما يصدر من الآخرين.

فالدين يرتكز على اتصاف الإنسان بالإرادة الحرة، وقدرته على مجاهدة نفسه وتهذيبها وتحليتها بالكمالات والقيم الفاضلة، وعلى تحميله مسؤولية خصاله وتصرفاته جميعاً، كما قال تعالى بعد القسم بالكائنات المحيطة بالإنسان: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[٢]، وقال عز من قائل: ﴿**قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ**

(١) سورة الشمس:٧ـ١٠.

(٢) سورة الإنسان:٣.

أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[١]، وقال جلت آلاؤه: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٤].

٥ ـ إثبات البعد الروحي للإنسان:[٥]

بمعنى أن الإنسان ليس كائناً مادياً بحتاً ـ بما للمادة من معنى معروف وخواص محددة في علوم الطبيعة كالفيزياء والكيمياء ـ، بل له بعد روحاني أرفع من المادة ملتئم مع البعد المادي ومتفاعل معه بحيث يكون أي نشاط روحي

---

(١) سورة الأنعام:١٠٤.

(٢) سورة الزمر:٤١.

(٣) سورة فصلت:٤٦.

(٤) سورة الكهف:٢٩.

(٥) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، المعاد) ص:٢٢٧ وما بعدها.

منعكساً بنحوٍ ما انعكاساً مادياً من خلال تغيرات فيزيائية وكيميائية في جسم الإنسان، فكما يؤثر قلق الإنسان على إفرازات كيميائية في الدماغ، كذلك النشاط الجسمي أيضاً ينعكس غالباً على الروح، كتأثير الأدوية الكيميائية على إزالة القلق.

وهذه الخصلة لا يستبعد العقل والعلم ثبوتها للإنسان، بل هناك مؤشرات عديدة عقلائية وعلمية على إثباتها..

منها: الاختلاف الواضح بين طابع الإدراكات والعمليات الإدراكية من التجربة والتحليل والاستنباط والتخيل ونحوها وبين الطابع الكيميائي والفيزيائي للمادة وخصائصها المادية مثل الحرارة والصلابة والغليان وغيرها.

ومنها: أن التفاعلات الكيميائية المقرونة بالنشاطات الإدراكية النفسية إنما تحدث في عضو خاص وهو الدماغ، بينما تستند هذه النشاطات وجداناً إلى ذات الكائن، ومن ثم تُسنَد تلك النشاطات إليه، فيقال: (فرحت، وحزنت، وأدركت، وفكرت) ونحو ذلك، ولا يقال: (فرح مخي..)، بل يقال: (إن مخي نشط نشاطاً كيميائياً متزامناً مع فرحي)[1].

---

(١) نعم قد تستند بعض النشاطات المتحققة ببعض الأعضاء

ومنها: أن الإرادة الحرة للإنسان لا تنسجم مع طبيعة المادة، لأن من طبيعتها أن تجري وفق سنن وقوانين تؤدي إلى نتائج معينة وحتمية، فلو كانت إرادة الإنسان تابعة لتغييرات كيميائية في دماغه لم يكن معنى لحرية الإنسان في أن يفعل ما شاء ـ إلى شواهد أخرى شرحتها في بحث حقيقة الإنسان ـ[1].

ومنها: أن طابع الضمير الإنساني وما يتضمنه من القيم هو طابع غير مادي، لأنه يناقض الأنانية والغرائز النفسية، فمن يضحي لأجل الآخرين ويؤثرهم على نفسه من غير طمع في أي مكسب مادي يعمل في الحقيقة عملاً يتجاوز به الاقتضاءات الغريزية المادية وينظر إلى أفق روحي راقٍ.

وقد يتفرع على هذه الخصلة ـ وهي وجود بعد روحي غير مادي للإنسان ـ ويؤشر عليها ظاهرتان ملحوظتان في الإنسان:

الأخرى إلى الكائن كما يقال (ضرب، وركض)، ولكن هذا الإسناد قد يكون بلحاظ دور الكائن من خلال الإرادة في حدوث هذه الأفعال، فلاحظ.

(١) ينظر في ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، المعاد) ص:٢٣٨ وما بعدها.

الظاهرة الأولى: نزوع الإنسان إلى ما وراء المادة وهذا شعور ملحوظ في تاريخ الإنسان والأقوام البشرية، حيث نجد إيماناً بوجود الإله، رغم الشكوك المطروحة في وجوده وشيوع الأعمال المنفّرة في أوساط بعض أهل الدين، ورغم أن من الممكن مبدئياً تفسير هذا الشعور بتفسيرات نفسية أخرى مثل الافتراض النفسي الناشئ عن مشاعر الحاجة، ولكن قد يكون التفسير الأقرب لسعة هذه الظاهرة في المجتمع البشري وجود إلهام فطري في تكوين الإنسان بوجود الإله، فكأن الإنسان قد جُبل على الشعور بالإله، والتوجه إليه ومخاطبته ومناجاته، وبث همومه له، والالتجاء في حاجاته إليه، كما أُلهِم الطفل مثل ذلك بالنسبة إلى والديه.

والظاهرة الثانية: هي الحاجة الروحية للإنسان إلى الأمور المعنوية، فلو كان الإنسان كائناً مادياً كان المفروض أن يعيش الاطمئنان والسكينة باستيفاء الحاجات المادية، ولكن من الملحوظ في الأوساط والمجتمعات الأكثر رفاهاً أنها أكثر عرضةً للعوارض النفسية مثل الشعور بالضيق والقلق وحب الانتحار بالقياس إلى المجتمعات الفقيرة، وهو ما يعلل بضعف الجوانب الروحية فيها، وذلك مما يشير إلى أن للإنسان فضلاً عن البعد المادي بعداً روحياً، له

اقتضاءات معنوية غير مادية، فلن يستقيم كيان الإنسان إلا بضرب من الاعتدال في الإيفاء بالحوائج المادية والمعنوية.

إذن لا استبعاد من المنطلق العقلي والعلمي في ثبوت بعد روحي للإنسان.

لقد أثبت الدين هذه الخصلة للإنسان فعلاً، ورأى أن للإنسان شعوراً بالإله ونزوعاً إليه، كما قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّـهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّـهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[١].

ورأى الدين أن للإنسان حاجة معنوية وروحية تساعده على تهذيب نزعاته المادية التي تؤدي إلى انتهاك القيم الفاضلة المزروعة في ضميره التي تمثل دستور الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية، كما قال تعالى عن الأعمال العبادية كالصلاة والصيام: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾[٢]، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ**

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وإذا وفى المرء بحاجاته المعنوية والروحية باستحضار الإله وذكره وشكره والاهتمام بالقيم الفاضلة فإنه يكون أقرب إلى أن يعيش السعادة ويحيى حياةً طيبة، كما فُسّر به قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾(٢).

بل أثبت الدين للإنسان ـ تفريعاً على إثبات البعد الروحي للإنسان ـ أمراً خطيراً للغاية، وهو بقاء الإنسان بعد الممات ـ من خلال بعده الروحي الذي لا يفنى بفناء جسده ـ وعوده إلى الحياة في نشأة أخرى، واعتبر أن هذه الحياة الدنيا في الحقيقة ليست إلا فرصة اختبارية للإنسان للتبصر والعمل الفاضل حتى يلقى نتاج معرفته وسلوكه في الحياة الأخرى، فيلقى بالحسنة حسنة وبالسيئة مثلها، وبذلك اكتسب الضمير الإنساني قيمة كبرى لأنه يمثل الطريق السالك من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، وتكون أعماله بذوراً للسعادة والشقاء في تلك الحياة، فرأي الدين أن هذا هو الذي يعطي معنى لخلق الإنسان والكون المسخَّر

---

(١) سورة البقرة:١٨٣.

(٢) سورة النحل:٩٧.

له، ويختلف به حال البر والفاجر والواعي والجاهل، فيقدَّر كلٌّ بقدره، ولولا ذلك لكان هذا الخلق أقرب إلى اللعب واللهو، كما قال تعالى بعد ذكر الدار الآخرة: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّـهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾(١) ، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا**

---

(١) سورة الدخان:٣٨ـ٤٢.

(٢) سورة ص:٢٦ـ٢٨.

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

لقد اتضح مما ذكرنا أن أصل وجود بعد روحي وغير مادي للإنسان أمرٌ غير بعيد بل هو قريب بحسب المؤشرات العقلية والعلمية والوجدانية.

ويبقى إثبات بقاء هذا البعد بعد المات، وعود الإنسان إلى الحياة في نشأة أخرى كما جاء في الدين وتلقّيه جزاء أعماله فيها، وهذا المعنى قد لا يناله العقل العامّ والعلم بشكل قطعي واضح، ولكنه لا ينفيه، فهو أمر محتمل ومعقول لا مانع من البناء عليه إذا تم الدليل على الدين[٢].

وفي ضوء مجموع ما ذكرنا يظهر أن الخصال الأربع

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ـ١٩١.

(٢) بل قد يبدو ذلك قريباً؛ وذلك لأنه متى ثبت وجود بعد روحاني غير مادي للإنسان، فإن معنى ذلك أن للإنسان وراء هذا الجسم المادي روحاً متعلقاً به، ومن القريب حينئذٍ أن يبقى الروح ولو بعد فناء الجسد، إذ لا موجب لأن يكون وجوده منوطاً بالجسم، حتى ينعدم بفناء الجسم.

وإذا كانت روح الإنسان تبقى بعد الممات فإن حاله وإن كان غامضاً في منظور العقل، إلا أن أقرب الافتراضات في شأنه أن يسعد أو يشقى وفق سلوكه الأخلاقي في هذه الحياة كما جاء في الدين.

الأولى التي يثبتها الدين للإنسان (من العقل المفكر، والعقل الحكيم، والضمير الأخلاقي، والإرادة الحرة) هي أمور وجدانية ملائمة مع الإدراك العقلي الإنساني العام، وكذلك الحال في الخصلة الخامسة وهي وجود بعد روحي للإنسان، فهي قريبة في أصلها وجملة من الظواهر المرتبطة بها، وهناك أبعاد أخرى لا يكشفها العقل ولا ينفيها، فلا مانع من القبول بها في حال تم الدليل على حقانية الدين.

هذا كله عن الرؤية الدينية للإنسان.

ب ـ رؤية الدين في شأن الإله:

وأما الرؤية الدينية في شأن الإله فتشتمل على أربعة أمور:

١. إثبات وجود الإله.

٢. إثبات وحدة الإله.

٣. إثبات كمالات ذاتية للإله كالعلم والقدرة.

٤. إثبات كمالات أخلاقية أو قل: الضمير الأخلاقي للإله مثل حب الخير وكراهة الشر.

١ ـ وجود الإله:[١]

لا شك أن فكرة وجود الإله الصانع للكون هي في حد نفسها فكرة معقولة وواردة في تفسير وجود الكون والكائنات.

بل الواقع أن العقل الإنساني العام يهتدي إلى ذلك عند التأمل بالنظر إلى النظم الجميل والرائع لهذا الكون والكائنات، فالنظم هو دليل العقلانية، ومن غير المعقول وجود انتظام من غير منشئ عاقل، ومن ثم لو سقطت آلة معقدة كالكمبيوتر من السماء جزمنا أن هناك كائناً عاقلاً صنعها، ولو وقفنا على أبنية وآلات وأدوات تاريخية لاكتشفنا من خلالها وجود إنسان في حينها قد أوجدها.

من جهة أخرى فإن هذا الكون متغير من حال إلى حال، فالدجاجة توجد من البيضة، وهكذا سائر الكائنات، فهل هذه السلسلة المتغيرة وجدت من غير سبب لها، وكيف يكون ذلك مع أن كل حلقة منها هي حادثة ومسببة عن حلقة سابقة؟ فكيف يكون مجموع الأمور المسببة (الناتجة عن السبب) مستغنية عن سبب وراءها؟ وهل وصف

---

(١) لاحظ: محاضرة (أفي الله شك) (ح٢ من هذه السلسلة)، وبتفصيل أكثر (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله).

المجموع إلا تابعاً لوصف أجزائه، فإذا كان هناك مجموعة مكونة من عدة أشياء بيضاء كانت المجموعة بيضاء طبعاً، ولم يجز أن تكون سوداء، رغم بياض كل واحد من تلك الأشياء.

إذن العقل الإنساني يمكن أن ينال باستنطاق هذا الكون والكائنات وجود الإله، ولكن اعتياد الإنسان على هذا المشهد يمكن أن تجعل هذه الدلالة خافتة في شعور الإنسان، فيحتاج إلى إزاحة غبار الاعتياد عن ذهنه، والمقارنة بين هذا الوضع المنتظم وسائر الأمور المنتظمة التي يرى أن وراءها سبباً عاقلاً لا محالة.

وقد كان دور الدين في مقام إرشاد الإنسان إلى وجود الإله يقوم على تحفيز فكر الإنسان في هذا الاتجاه تحفيزاً وجدانياً، بإلفات نظره إلى روعة الكائنات ونظمها وتغيّر أحوالها لكي يستطيع من استنطاقها عن وجود الخالق، كما نجد ذلك بشكل واضح ورائع وجميل في الكثير من الآيات القرآنية.

ولم تزل هذه الدلالة قائمة بعد عصر العلم، لأنها تستمد من العقلانية العامة التي جُهِّز بها الإنسان وهو جزء من كيانه، ومعتمده في مقام تفكيره حول الأشياء.

بل إن العلم الحديث أكد معطيات العقل الفطري في

إثبات الإله باكتشاف ابتناء الكون على قوانين ومعادلات وأرقام رياضية لم تكن لتوجد لولا وجود عقل رياضي وراءه قد هندس الكون ابتداءً من الأجزاء المكونة للذرة إلى المجرات العظيمة التي تفوق في حجمها الخيال.

لقد كان الدين راشداً ورائعاً حقاً في هداية الإنسان إلى وجود الإله الخالق وتفسير نظم الكون وروعة الكائنات من خلال ذلك، وأخرج الإنسان عن التحير والترديد في شأن هذا الأمر المهم.

وإذا كان العلم الحديث قد وقع في شيء من التحير والترديد نتيجة المناهج التشكيكية التي راجت في هذا العلم كردّ فعل على مبالغة الفلاسفة في ادعاء عقلانية بعض الأمور مما أدى إلى الترديد في بعض معطيات العقلانية العامة الراشدة إلا أنه لم يستقر على ذلك، بل أذعن كثير من علماء الطبيعة بالدلالة الكامنة للكون على وجود الإله.

٢ ـ وحدانية الإله:

إن وحدانية الإله الموجِد للكون والمدبِّر له ـ كما جاء في الدين ـ هي أيضاً فكرة معقولة بل وراجحة من المنظور

العقلي[١].

فالإنسان بتأمله الفطري في الكون لن يجد ما يدل على أكثر من صانع لهذا الكون والكائنات، فالكون كله والكائنات كلها في تناسق بديع وتكامل رائع.

وقد نبه الدين ـ في مقام إرشاده الإنسان إلى وحدة الإله ـ على هذا المعنى، وألفت نظر الإنسان إلى هذا التكامل الرائع[٢].

وقد ابتلى الإنسان لعوامل متعددة ـ مثل العصبيات

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، خصائص الإله) ص:٣٩ وما بعدها.

(٢) قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ تَعَالَى اللَّـهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. (سورة النمل: ٦٠ـ٦٤).

التي كانت تدعو الأقوام لافتراض إله يخصها ويحميها في مقابل أعدائها ـ بافتراض تعدد الآلهة، حيث افترض طوراً كائنات روحية أخبر عنها الدين كالملائكة إلهاً وافترض طوراً آخر بعض البشر الذين حكموا المجتمع إلهاً وافترض ثالثاً بعض الجمادات من التماثيل التي يصنعها إلهاً.

إلا أن الدين فنّد كل ذلك، ونبّه على أنه ليس للكون إلا إله واحد، وليس هناك أي شيء غير الله سبحانه يمكن أن يكون إلهاً، فالأشياء المادية التي تم تأليهها حالها حال سائر مماثلاتها، كما أن البشر كلهم على مثال واحد، ولا معنى لتأليه بعض لبعض، وأما الكائنات الروحية فهي غير مشهودة للإنسان، فلا سبيل لإثباتها حتى تستحق التأليه.

إن حجة الدين على توحيد الإله لم تزل قائمة في عصر العلم لابتنائها على العقلانية العامة، بل العلم الحديث يؤكد هذا التوحيد، لأنه يوضح التناسق التام للكون وقوانينه، ويبين أن ما يمكن أن يكون مأخذاً لإثبات التعدد مثل كوارث الطبيعة تستند إلى القوانين الطبيعية ذاتها التي يستند إليها تطور الطبيعة وتكاملها.

إن إنباء الدين عن توحيد الإله فكرة صائبة وراشدة حقاً، ولو تمسك بها الناس كلهم لسلموا عن كثير من الأخطاء والخرافات التي وقعوا فيها.

لقد ابتُليت بعض الأديان بتسرَّب الشرك إليها مثل تأليه المسيح عليه السلام في المسيحية، وتأليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام من فرق شاذة في الإسلام، ولكن القرآن الكريم أكد على توحيد الإله تأكيداً مضاعفاً واستقبح تأليه الإنسان والأصنام ونبّه على مجافاة ذلك كله للعقلانية الراشدة في نصوص عديدة.

٣ ـ كمالات ذاتية للإله:

إن صناعة الإله لهذا الكون العظيم والواسع والمنظم وللكائنات الرائعة والمذهلة لهي تدل على صفات كمالية مميزة للإله من قبيل العلم والقدرة والاختيار، فعظمة الكون تقتضي صانعاً متصفاً بالعلم المحيط والقدرة الفائقة، والفعل الصادر عن علم وقدرة يكون بطبيعة الحال فعلاً اختياريَّاً حرَّاً، كما هو الحال في الإنسان(١).

ولم تزل هذه الدلالة ـ كالدلالة على أصل وجود الإله وتوحيده ـ قائمة في عصر العلم، بل كشف العلم أبعاداً إضافية من علم الإله ومقدرته بالكشف عن ابتناء الكون

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، خصائص الإله) ص:٨٥ وما بعدها.

على معادلات وأرقام رياضية دقيقة.

نعم يكشف العلم وجود الكون بتفاصيله هذه من خلال التطور عن وضع أولي ـ ككتلة تعرضت للانفجار فانفتقت عن كل هذا النظم الكوني ـ إلا أن ذلك لا ينفي استناد هذا الوضع الرائع إلى الإله، لأن تكوين تلك الكتلة ومستوى الانفجار الحادث فيها كان دخيلاً في طبيعة ما يوجد من خلال الانفجار، وذلك يقتضي اطلاعاً من الإله الموجد لها، وقد ذكر علماء الفيزياء أن الانفجار الذي أوجب انفتاق الوضع الكوني كان دقيقاً للغاية، لأن أي اختلاف فيه عن الذي وقع فعلاً ولو بنسبة طفيفة كواحد من أرقام مؤلفة من عشرات الأصفار كان سيؤدي إلى وضع مختلف.

على أن اطلاع الإله على جميع تفاصيل الأمور وجزئياتها ومآلاتها أمر معقول ووارد وغير مستبعد، وقد جاء به الدين صريحاً، فمتى تمت الحجة على حقانية الدين وصدقه ثبت ذلك ثبوتاً قاطعاً.

٤ ـ اتصاف الإله بالضمير الأخلاقي:

إن هذا الموضوع موضوع مهم للغاية للإنسان في شأن الإله، فإذا كان الإله عالماً قادراً مختاراً فهل هو محب للخير

وكاره للشر، ومتصف بالضمير الأخلاقي، أم هو صانع قدير فحسب، ولا يحمل أية صفة أخلاقية[١].

فالعلم لا يثبت هذه الصفة للإله، لأنه ينظر إلى الطبيعة التي هي الفعل التكويني للإله، والطبيعة إنما تمثّل علم الله سبحانه وقدرته وتدبيره، ولا دلالة لها في حد نفسها على التزام أخلاقي للإله؟

ولكن الذي جاء في الدين ـ عن الله سبحانه ـ إثباته هذه الصفة لنفسه، فهو سبحانه يحب العدل والإحسان والشكر والصدق والوفاء وأخواتها، ويكره الظلم والإساءة والكذب والغدر وأخواتها.

كما أنه سبحانه فيما يتعلق بعمل نفسه متصف بتلك القيم الفاضلة وملتزم بها ومتجنب عن أضدادها، فهو يراعي العدل، ويتجنب الظلم، كما أنه لن يقول غير الحق، ولن يخلف الوعد، وهو يشكر من شكره، ويرعى من استرعاه، ويستجيب لمن سأله، ويرحم من استرحمه، كما ورد كل ذلك في العديد من الآيات القرآنية بشكل صريح وواضح.

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، خصائص الإله) ص:١٨٣ وما بعدها.

وهذا المعنى يبدو قريباً إلى وجدان الإنسان، لأن كل كائن عاقل وقادر ومختار يكون للأخلاق فيه محل ومورد، ويكون التزامه الأخلاقي صفة كمال له، كما يكون خلافه صفة نقص له كما هو الحال في الإنسان، وعليه فإن من كمال الإله أن يحب الأعمال الحسنة ويكره الأعمال الخاطئة، وهو أولى بهذه الصفات من الإنسان لمكان علمه وقدرته واستغنائه، فلا يتوقع منه عدم تحرّجه عن الأعمال القبيحة مثل الظلم والكذب والغدر ونحوها.

على أنه تعالى هو الذي خلق الإنسان وأودع فيه هذا الضمير الأخلاقي الرائع فكيف يمكن أن لا يتصف نفسه بهذه الصفة؟

إذن ما جاء به الدين يبدو قريباً إلى الوجدان الإنساني.

وبذلك ترتفع الاعتقادات الخاطئة السائدة لدى بعض الملل من أن الإله يصنع كل ما شاء، لأنه مالك كل شيء، فتصرَّفه إنما هو في سلطانه وملكه.

إن هذه الصفة للإله مهمة جداً، فهي تفتح الباب للعلاقة بين الإله وبين الإنسان وفق ما جاء في الدين كما سيأتي إيضاحه.

هذه هي أنباء الله سبحانه عن نفسه وفق ما جاء في رسالته إلى الخلق في الدين، والملحوظ أنها أنباء راشدة

وملائمة يؤيدها على الإجمال العقل والعلم والوجدان، وليس فيها ما يوجب الريبة والاستبعاد.

رؤية الدين للعلاقة بين الإله والإنسان:

وأما الرؤية الدينية للعلاقة بين الإله والإنسان[1]: فهي محور رسالة الإله إلى الإنسان في الدين، بل هذه الرسالة بنفسها إبراز اهتمام من الإله بالإنسان، فهي تمثل عنايته به ورعايته له وخصوصيته عنده من بين مخلوقاته.

وتتضمن هذه العلاقة عدة أمور:

١. عناية الإله بالإنسان.

٢. نسبة الإله إلى الإنسان كالوالدين إلى الأولاد.

٣. انتظام العلاقة بين الإله والإنسان وفق قواعد أخلاقية وحقوق متبادلة.

٤. حق الإله على الإنسان.

٥. حق الإنسان تجاه الإله.

٦. إسعاف الإله للإنسان برسالةٍ إليه.

٧. كون الإله قيّماً على مراعاة القيم في هذه الحياة.

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، خصائص الإله) ص:١٦٧ وما بعدها.

٨. مسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله في هذه الحياة.

١ـ عناية الإله بالإنسان:

إنّ الله سبحانه وتعالى معني بالإنسان عناية خاصة من حيث تميز الإنسان بالعقل المفكر الذي يمكن أن يهتدي معه إلى الله سبحانه ومزايا هذا الكون المادي، فيسخِّر إمكانات هذا الكون لنفسه وينتفع بها، وتميّزه كذلك بالضمير الأخلاقي الذي يتأتى من خلاله أن يتعامل مع الإله سبحانه بالتقدير والشكر، ويتعامل مع بني نوعه بالعدل والإحسان، فجعله خليفته على أرضه[1]، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[2]، وقال

---

(١) كما قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾. (سورة البقرة: ٣٠ـ٣٣).

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١]، وقال عز من قائل: ﴿اللَّـهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، وقال جلت آلاؤه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّـهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٣].

وتبدو هذه العناية أمراً مناسباً من المنظور الوجداني بعد أن كان الإله حكيماً يقدّر كل شيء بقدره، فكان من شأن خلقه للإنسان مزوداً بأبعاد واستعدادات روحية ومادية أن تكون له عناية تليق به ملائمة لهذه الأبعاد والاستعدادات الرائعة.

---

(١) سورة الإسراء:٧٠.

(٢) سورة الجاثية:١٢-١٣.

(٣) سورة لقمان:٢٠.

٢ ـ نسبة الإله إلى الإنسان:

إنه وفق هذه العناية كانت نسبة الإله إلى الإنسان ـ على سبيل التقريب ـ نسبة الوالدين إلى الأولاد، فالوالدان يحبّان وجود الولد قبل أن يكون، ويسببان إلى ذلك، ويتعلقان به لأنه منهما وامتداد لهما، ويبذلان ما في وسعهما لإسعاده ورعايته، فللولد بخلقته شعور بالحاجة إلى والديه وعطفهما، وللوالدين وفق تكوينهما استجابة لهذا الشعور بالود والعطف والعناية.

فالإله أحب أن يوجد الإنسان ككائن مميز، فأوجده وغرس فيه التعلق بالإله، وأحبَّه بعد وجوده، وقدّر استجابة من نفسه لهذا التعلق به وفق ما اقتضته حكمته في ملاءمة حال الخلق لصفة الخالق، وتلك ملاءمة يستقربها الوجدان الإنساني.

٣ ـ انتظام العلاقة بين الإله والإنسان وفق قواعد أخلاقية:

إنّ هذا التوصيف للإله والإنسان اقتضى انتظام العلاقة بينهما على أساس قواعد أخلاقية، لأن كلاً منهما ـ على تفاوت موقعهما ـ كائن عاقل وقادر ومختار، فهما متصفان

بطبيعة الحال بالضمير الأخلاقي، وكل كائنين عاقلين يدرك بعضهما بعضاً ويستطيع أن يتعامل معه بالحسنى وخلافها فإنه يكون التعامل بينهما وفق اقتضاء هذا الضمير بالنظر إلى صفتهما تلك وبالنظر إلى أيّة وشيجة إضافية بينهما مثل الأبوة والبنوة بين الآباء والأولاد.

فإنّ هذا الضمير يرسم حقوقاً متبادلة بين الإله والإنسان، من جهة صفتهما ككائنين عاقلين وما بينهما من وشيجة الخلق والإنعام، كما قال الإمام علي عليه السلام: ((أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهَّ سُبْحَانَه لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ، ولَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْه، ولَا يَجْرِي عَلَيْه إِلَّا جَرَى لَه، ولَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَه ولَا يَجْرِيَ عَلَيْه، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً للهَّ سُبْحَانَه دُونَ خَلْقِه، لِقُدْرَتِه عَلَى عِبَادِه، ولِعَدْلِه فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْه صُرُوفُ قَضَائِه، ولَكِنَّه سُبْحَانَه جَعَلَ حَقَّه عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوه، وجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْه مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ، تَفَضُّلًا مِنْه وتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْـمَزِيدِ أَهْلُه.

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَه مِنْ حُقُوقِه حُقُوقاً، افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، ويُوجِبُ

بَعْضُهَا بَعْضاً، ولَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ»[١].

وعليه كان تعامل الإله مع الإنسان وفق مقتضيات العدل والإحسان والفضل، على ما صرح به في القرآن الكريم في الكثير من الآيات على ما سبق ذكره، كما يجب على الإنسان أن يتعامل مع الإله وفق ما يقتضيه حق الله سبحانه عليه بالخلق والإنعام.

٤ ـ حق الإله على الإنسان:

إنّ حق الإله على الإنسان أن يعرفه كخالق للكون والإنسان، ومنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، تأدباً معه في موقعه كإله وشكراً له على إنعامه، ومن القبيح من المنظور الأخلاقي أن يهمل الإنسان معرفته أو يشرك معه في الألوهية من لا صنع له في شيء، أو يهمل معرفة رسالته إليه وما أحبّ أن يبلغَّه إياه، بل ذلك ظلم عظيم، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٢]، وقال سبحانه بعد توصيفه لنعمه على الإنسان: ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة:٢١٦.

(٢) سورة لقمان:١٣.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّـهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١].

وليس هناك من حاجة للإله إلى عمل الإنسان وشكره كما هو واضح بعد الالتفات إلى أبعاد قدرته وعظمته، إلا أن الإنسان هو الذي يحتاج إلى معرفة الإله وتقديره لحقه وإنعامه، لما تقدم من أن صلاح الإنسان وسعادته حسب السنن التي وجد عليها منوط بعمله على أساس الضمير الأخلاقي بمراعاة الآداب والحقوق، ومن ثم فإن معرفة الإنسان للإله والإذعان به والشكر له على معروفه يؤدي إلى سعادة روحية في هذه الحياة وسعادة شاملة في الحياة الأخرى، والجحود والإهمال يؤدي إلى عناء وشقاء روحي في هذه الحياة وعناء شامل في الآخرة، والجهل عن قصور يفقد الإنسان المزية المترتبة على التبصر والشكر للإله، كما قال تعالى: **﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[٢].

٥ ـ حق الإنسان تجاه الإله:

إنّ للإنسان حقاً تجاه الإله، كما أن للإله حقاً عظيماً على

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٢) سورة البقرة:٥٧، والأعراف:١٦٠.

الإنسان، فإن الحقوق بين كائنين تكون متبادلة دائماً ولا تكون من طرف واحد، كما مرَّ في كلام الإمام علي عليه السلام، وأقل ما في ذلك عدم ظلم أحدهما للآخر بالإساءة والاعتداء والإيذاء، ثم إذا كانت بينهما وشيجة إضافية فهي طبعاً تكون من الطرفين سواء تماثلت وشيجة كل من الطرفين مع الآخر فيتماثل مقتضاها كما في وشيجة الإنسانية أو الأخوّة، فهذا الإنسان يرتبط مع الإنسان الآخر بوشيجة الإنسانية، والإنسان الآخر كذلك يرتبط مع الأول بعين هذه الوشيجة، وكذلك الحال في الأخوة، فهي متماثلة بين الطرفين، فهذا أخ لذاك، كما أن ذاك أخ لهذا أم اختلفت الوشيجة بين الطرفين كالعلاقة بين الأبوين والأولاد، فالوشيجة من جهة الأبوين أبوة وأمومة ومن جهة الأولاد بنوّة، فيختلف مقتضى الوشيجة بعض الشيء ولكن يكون لكل من الطرفين حقاً على الآخر، فللأب والأم حق على الأولاد بعنوان حق الأبوة والأمومة، كما أن للولد حقاً عليهما بعنوان حق البنوّة، وكلٌّ من الحقين يشتمل على الإحسان إلى الطرف الآخر عند ضعفه وحاجته والتعامل العاطفي الملائم معه، ولكن قد تختلف تفاصيل الإحسان بحسب ما يلائم كلاً منهما.

وللإنسان مع الإله علاقتان:

الأولى: أن الإنسان كائن عاقل تسعده أمور وتؤذيه أمور أخرى، وله مكتسبات بجهده بعد تفضل الله سبحانه عليه بخلقه وتسخير الأشياء له، كالمال الذي يحصل له من طريق الزراعة والتجارة وسائر الأعمال، فله بذلك استحقاقات في نفسه وما اكتسبه، فتكون مراعاتها من العدل.

الثانية: أن الإنسان مخلوق لله سبحانه، فهو أوجده بمشيئته وإرادته وقد خلقه محتاجاً إلى ما جهّزه به من الأعضاء والجوارح وإلى ما سخرهَّ له من النعم حوله، فكان بذلك كما ذكرنا أشبه بالولد بين والديه، وهذا الأمر يقتضي رعاية الإله للإنسان، كما أن الوالدين يرعيان ولدهما بالطعام والشراب والتعليم والتربية وسائر مقومات الحياة حتى يستغني بنفسه، ولكن لا غنى للإنسان عن الإله في حالٍ.

وهذه الرعاية محققة من الإله في المستوى المادي بما متّعه به من النعم والإمكانات وفق البيئة التي أوجد الإنسان فيها، حيث يحيط به النعم المختلفة من الماء والهواء والنباتات والحيوانات والشمس والقمر وغير ذلك.

وقد دلّ الدين ـ من خلال القرآن الكريم ـ على أن الله سبحانه يراعي خلقه فعلاً بالعدل بل وبالفضل والإحسان.

فمن العدل أنه سبحانه لا يظلم عباده بحالٍ، بل هو قائم معهم بالقسط في هذه الحياة وما بعدها، كما أكد ذلك مكرراً في الآيات القرآنية كلما ذكر مجازاة الظالمين من قبله سبحانه على ظلمهم. ومن جملة العدل أيضاً أنه يصدق معهم ويفي لهم بما وعدهم والتزمه لهم من الأجر والثواب من غير منّة عليهم في ذلك، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**وَعْدَ اللَّـهِ لَا يُخْلِفُ اللَّـهُ الْـمِيعَادَ**﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿**فَإِنَّ اللَّـهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْـمُحْسِنِينَ**﴾(٣)، وقال جلت آلاؤه: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّـهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَـهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾(٥).

ومن جملة وجوه الإحسان والفضل: اهتمامه بتعليمهم

---

(١) سورة مريم:٦١.

(٢) سورة الزمر:٢٠.

(٣) سورة يوسف:٩٠.

(٤) سورة البقرة:١٤٣.

(٥) سورة فصلت:٨.

وتربيتهم من خلال الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(١).

ومن جملة وجوه الفضل أيضاً التزامه سبحانه لنفسه بأن يتولى الإنسان في هذه الحياة متى عرفه ورغب في ولايته، فهو يتعامل معه بالود والرحمة، فهو يصغي إليه إذا تحدث إليه، ويقدّر أدبه معه إذا ذكره، ويلهمه الحكمة إذا توجّه إليه، ويستجيب له إذا دعاه، ويعينه في شدائده إذا استغاث به، حسبما تسمح به مقادير هذه الحياة التي سنّ الله سبحانه وجود الكون والإنسان عليها، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٣).

ومن لطفه سبحانه بالإنسان أنه يعتبر ما يفعله الإنسان دَيناً ويعد بالوفاء به رغم أن الإنسان وما ملكه هو ملك له

---

(١) سورة الجمعة:٢.

(٢) سورة النمل:٦٢.

(٣) سورة البقرة:١٨٦.

سبحانه ومخلوق له، ولكنه اعتبره دَيناً إشارةً إلى جهد الإنسان في تحصيله ووعده بمكافأته، قال سبحانه: ﴿**مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾(١)، ومثله آيات أخرى، ومن هذا القبيل التزامه سبحانه بشكر من عمل شيئاً له، كما وصفه تعالى مكرراً بأنه شاكر أو شكور.

وبذلك يكون الله سبحانه سنداً وعوناً للإنسان في هذه الحياة، فهو مصدر للتسلية والعزاء والأمل والرجاء والإلهام والتسديد.

٦ ـ إسعاف الإله للإنسان برسالة إليه:

إنّ الله سبحانه وفق ما تقدم من عنايته بالإنسان وما التزمه لنفسه تجاهه أسعفه في معرفته والإذعان به ومعرفة أبعاد وجود الإنسان نفسه، وتأكيده على سنن الخير والشر في هذه الحياة من خلال رسالة منه إلى العباد لتعريفه بهذه الأمور الخطيرة، فالغاية من إرساله سبحانه رسلاً إلى الناس تعريفهم بنفسه وبمحبته لخلقه، وتأكيده على وجود بعد روحي للإنسان يبقى بعد الممات، وتأثير أعمال الإنسان في

---

(١) سورة الحديد:١١.

سعادته وشقائه بعد هذه الحياة وفق السنن التي سنّ عليها وجود الإنسان.

وهي رسالة ضرورية في أصلها لوقوف الإنسان على هذه الآفاق بشكل واضح وبيِّن واستعداده لهذا الاختبار والسباق في الحياة ونيل درجته في الحياة الأخرى.

٧ـ كون الإله قيّماً على مراعاة القيم في هذه الحياة:

إنّ الله سبحانه بحسب موقعه وصفاته كان القيّم على مراعاة القيم في هذه الحياة، كما يجد الأب نفسه معنياً برعاية القيم داخل الأسرة، فيشجّع على العمل الحسن بالبناء والتقدير والمكافئة، ويرغّب عن العمل السيء بالتحذير واللوم والعقاب والجزاء، ومن ثم كان الله سبحانه حامياً للحقوق العادلة وداعياً إلى الفضيلة، يقدّر كل خصلة فاضلة وكل عمل صالح، ويحذّر من كل خصلة سيئة وكل عمل خاطئ، كما يتمثل ذلك في عامة الآيات القرآنية.

٨ـ مسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله في هذه الحياة:

إنّ الله سبحانه حيث منح الإنسان الاختيار فإنه اقتضى تحميله مسؤولية عمله، فكان لكل أمر درجته في الحياة

الأخرى حسب تبصره وسلوكه في هذه الحياة، كما قال تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿**وَخَلَقَ اللَّـهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْـحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[(٢)].

وقد يخطر في ذهن الإنسان ابتداءً أن جزاء الآخرة الموصوف في النصوص القرآنية ـ ومن قبلها الإنجيل والتوراة ـ ثوابها وعقابها فوق استحقاق العمل الدنيوي حسنة كانت أم سيئة، ولكن الآيات القرآنية تؤكد على تناسب الأعمال في هذه الحياة مع الجزاءات الأخروية، لأن طبيعة نظام إنتاج العمل الدنيوي للجزاء الأخروي يشبه نظام الزرع والحصاد. ولا يملك الإنسان أمام هذا التأكيد في النصوص أن يجزم بعدم التناسب فعلاً، بل غايته أن يكون نقطة غامضة لدى الإنسان، لأن هذا الجزاء لا يتعلق بهذه الحياة ليسهل للإنسان تحديد ما يلائمها، وإنما يتعلق بعالم الآخرة، وهو عالم غامض ذو طابع مختلف عن طابع الحياة الدنيا.

---

(١) سورة الأحقاف:١٩.

(٢) سورة الجاثية:٢٢.

ولا يبعد أن يستوضح الإنسان هذه النقطة من الله سبحانه في العالم الآخر، لأن مشهد الآخرة وفق تأكيدات القرآن الكريم مشهد عادل مبني على الموازين العادلة والوثائق المعترف بها، وهناك مخاطبات بين الإله وبين الإنسان فيها بشأن مسؤوليته عن أعماله في الحياة الدنيا، فلا شك أن للإنسان في تلك الحياة أن يسأل الله سبحانه عن تناسب العمل الدنيوي مع هذا الجزاء الكبير.

هذه هي رؤية الدين في شأن ارتباط الإنسان مع الإله وهي رؤية معقولة على الإجمال، بل فيها أبعاد وجدانية وأخلاقية متعددة، نعم هناك جوانب متشابهة وغامضة في حيثيات مرتبطة بها، فهي تبقى مرهونةً بقيام الحجة على صدور رسالة من الإله إلى الخلق.

هذا توضيح بحث الرؤية الدينية في شأن كل من الإنسان والإله والارتباط بين الإنسان والإله وفق نصوص القرآن الكريم دون أي تحميل أو تجميل.

وهي رؤية لا ينفيها العلم ولا العقل في شيء من مفاصلها، بل يؤكد العلم والعقل والوجدان الإنساني مفاصل عديدة منها كوجود الإله ووحدته وكماله، واتصاف الإنسان بالخصائص الخمس ـ من فكر وأخلاق وحكمة وإرادة حرة وبعد روحي ـ.

كما أن المفاصل الأخرى منها غير مجافية للعقلانية، بل تبقى محتملة إذا تم الدليل عليها، وقد تم الدليل المقنع عليها فعلاً من خلال مؤشرات حقانية الدين ـ كما أوضحنا ذلك في أبحاث أخرى ـ[١].

وصف تبصري لنفسي في هذه الحياة:

إنّني منذ تبصّري لنفسي في أمر الوجود والإله والإنسان ووقوفي على هذه الرؤية من خلال القرآن الكريم وجدت أن الصورة التي تتمثل في هذه الرؤية صورة معقولة ووجدانية وملائمة لم تبلِ ولن تُبلى في أثر تطور العلوم الطبيعية والإنسانية[٢]، بل هي رؤية تنبض وتفيض بالحياة،

(١) ينظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، رسالة الله إلى الإنسان).

(٢) إن بعض المذاهب في بعض العلوم الطبيعية والإنسانية قد ينكر بعض مفاصل هذه الرؤية كالمذهب المنكر للإرادة الحرة للإنسان، والمذهب المنكر للقيم النبيلة، والمذهب المنكر لوجود بُعد روحي للإنسان تماماً، إلا أن هذه المذاهب إما أنها تواجه بديهيات واضحة بحسب الرشد الإنساني العام مثل إنكار القيم والإرادة الحرة، أو أنها تجعل بعض الاحتمالات العلمية كأنها حقائق ثابتة، وذلك أمر خاطئ جداً.

وتستمد من أسس العقلانية الراشدة التي تمثل ثوابت الخبرة الإنسانية لتكون الدليل المنبِّه والمذكِّر للإنسان، وتضرب في أعماق وجدان الإنسان ومشاعره وأحاسيسه لتملأ البعد الروحي له وتستجيب لحاجاته المعنوية التي هي أحوج ما يكون إليه في الوقت الحاضر.

فتأمل هذه الرؤية بمفاصلها وأعد النظر فيها بأجزائها مجتمعة تجد مدى قربها من العقل والوجدان والشعور الإنساني.

فالإنسان كائن مفكر ذو إرادة حرة وبُعد روحي، وقد زُوّد بالنزوع إلى الحكمة وبالضمير المشتمل على قيم الفضل والعدالة، لتكون هذه القيم الدستور الأساس الذي يعمل عليه في هذه الحياة وسوف يحدد تبصره وسلوكه فيها درجته لينال ما يلائمها في عالم الآخرة.

والإله هو الخالق لهذا الكون المنظم والدقيق والكائنات الرائعة، وهو التفسير المنطقي لوجودها، وهو إله واحد ـ كما يعطيه وحدة الكون وتناسقه ـ ولا يصح إشراك أي كائن آخر معه من بشر وحجر وصنم، بل الشرك خرافة صنعتها منافذ الضعف في النفس الإنسانية، ويتصف الإله بالعلم المحيط والقدرة الفائقة، كما يتمثل في ما يقف عليه الإنسان من معالم هذا الكون المادي، وهو مع ذلك متصف

بالأخلاق الفاضلة، فهو يحب الخير والعدل، ويكره الشر والظلم.

وأما علاقة الإله بالإنسان فهي علاقة رعاية وعناية ورأفة ووداد، فقد أحبه سبحانه قبل خلقه، فخلقه وأكرمه ووهب له العقل والضمير وسائر الإمكانات المميزة، وفضّله على كثير من خلقه تفضيلاً، فمثله سبحانه مع الإنسان مثل الوالدين مع الأولاد ومثل الجميع كالأسرة الواحدة، وتنتظم العلاقة بينه وبين الإنسان وفق قواعد أخلاقية وحقوق متبادلة، فللّه على الإنسان أن يبحث عنه ويتعرف عليه، ويذعن به ويتحرى رسالته إليه، ويتعامل معه بالشكر والثناء والتقدير لموقعه سبحانه في خلقه والإنعام عليه، وللإنسان تجاه الإله أن يتعامل معه سبحانه بالعدل والفضل والإحسان، وقد أسعف الله سبحانه الإنسان بفضله برسالة أرسلها إليه يهديه إلى معالم الوجود وسنن الحياة وأبعاد وجود الإنسان، ثم كان هو سبحانه القيّم على مراعاة الإنسان للقيم في هذه الحياة، يشجّعه عليها ويحذّره مغبّة انتهاكها، وقد حمّل الإنسان ـ بعد أن جعل له الإرادة الحرة ـ مسؤولية أعماله، ليلقى جزاء أعماله وتكون له درجته بحسبها.

فسبحان الله ما أكمل هذه الصورة للوجود، وأحسن

تفسيره للكون، وما أشدّ تناسقه في شرح أبعاد الوجود والإله والإنسان، وما أجمل الوجود والكون والإنسان وفق هذه الرؤية، فهي تجمع بين العقلانية والاستجابة للشعور الوجداني، وتشرئبّ النفس للبحث عنها والتحقق منها ومن ثم العمل على وفقها.

نعم إنها تنطوي على كثير من الجدّ في شأن الإنسان قد يهابه المرء ويستصعبه، لأنه يجعل من الإنسان الذي يتوقع فناءه بالممات كائناً خالداً أبداً ويبدل هذه الحياة من حياة لاهية وعابرة وغير مسؤولة إلى حياة جادة يختبر فيها في تبصّره وسلوكه ليلقى درجته في الحياة الخالدة، ويرفع القيم الفاضلة من مشاعر نفسية بحتة يتذوقها الإنسان لتكون سنناً للسعادة والشقاء.

ولكن ليس في هذا الجدّ وما يقتضيه من الجهد والالتزام ما يعذر الإنسان في رفض هذه الرؤية وترك التحقق منها.

فليتحمل الإنسان مسؤوليته في هذه الحياة ضريبةً على ما مُنح من العقل والتفكير وليتحقق من الحقيقة ثم يعتبر بها في حزم لا يهين وعزيمة لا تلين.

ولنختم هذا البحث بآية قرآنية تجمل لنا مضامين الدين، قال سبحانه: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم**

مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

والله نسأل أن يوفقنا للتبصر في هذه الحياة والعمل بما تبصّرنا به، والحمد لله رب العالمين.

✧ ✧ ✧

(١) سورة الأنعام:١٥١.

فهرس الموضوعات